



حرص على التفرد

الجمال المدهش.. بصمة أرمنية مستمرة في المجتمع المصري

النظرة المجتمعية للطائفة تنتصر على إنكار الإبادة وتشويه التاريخ



الأرمنية ميرال ماهيليان حسناء موكب المومياوات

وفي مجال الكاريكاتير برز اسم الفنان الشهير الكسندر صاروخان، وهو أشهر شخصية أرمنية في الصحافة المصرية وعمل في مجلات "السينما" و"روز اليوسف"، و"آخر ساعة"، إلى جانب صحف "الكشكول"، "الصرخة"، و"أخبار اليوم".

وأوضح علي حامد لـ"العرب"، أن المساهمات الأرمنية في الفن التشكيلي تنوعت بين المدرسة الكلاسيكية والواقعية والتعبيرية، لكنها تميزت جميعا باهتمام واضح بالطبيعة الخلابة وبث ألوان البهجة والمرح، ربما كنوع من المقاومة للحزن والوجع الإنساني.

كافة الأرمن في مصر حصلوا على الجنسية المصرية، وهو ما ميزهم عن باقي الأرمن في الكثير من البلدان

وأضاف أن إعجاب ورثا جمهور الفن العام في مصر عن فنانين باعيتهم يمتد إلى أصول هؤلاء الفنانين، خاصة إن كانت تلك الأصول معلنة، على ما انتشر في بعض الحكايات الشعبية من روايات تدل على حُسن فتيات الأرمن وخفة أرواحهن وبراعة ملامهن، ما جعل الفتاة الأرمنية فتاة أحلام بعض الشباب من المصريين في بعض الأزمنة.

ولذلك تبقى الإسهامات المضيئة للأرمن دافعا إلى استمرار الصورة الذهنية الإيجابية في أذهان فئات عديدة من المصريين ومركزا للإرادة والمقاومة والتفرد.

ورغم أن حضور الأرمن في الرواية المصرية الكلاسيكية ظل خافتا بحسب الناقد الأدبي مصطفى بيومي، حتى أن نجيب محفوظ وجيل الرواد لم يقدموا شخصية أرمنية محددة، إلا أن بعض الكتابات الروائية في مصر، خاصة من جيل الشباب والوسط، اتخذت من مأساة الأرمن قاعدة انطلاق لنسج عوالم سرد متنوعة حولها من أهمها حديثا رواية "العشاء الأخير" لميسرة الدندراوي ورواية "موت منظم" لأحمد مجدي همام.

في تطور الصحافة وفن المسرح والسينما والتصوير الفوتوغرافي. وأشار الباحث سمير زكي لـ"العرب" إلى أن براعة الأرمن في الحرف اليدوية، خاصة صناعة المشغولات الذهبية، حافظت على أسس الحرفة من الانتشار عقب هجرة اليهود المصريين منتصفا الخمسينات والذين كانوا يسيطرون عليها سيطرة كبيرة.

كان من اللافت أن كافة الأرمن في مصر حصلوا في ما بعد على الجنسية واستخرجوا جوازات سفر مصرية، وهو ما ميزهم عن باقي الأرمن في الكثير من البلدان التي لجأوا إليها، حيث أطلقت عليهم هناك صفة لاجئين أرمن.

كان اعترازهم بالانتماء إلى مصر، مجتمعيا وثقافيا وروحيا وتاريخيا، لذا فكل الأرمن المصريين يعتزون بانتمائهم إلى هذا البلد، ويتحدثون اللغة العربية باللهجة المصرية بطلاقة، رغم محافظتهم على اللغة الأرمنية، وإتقانهم لعدد آخر من اللغات الأجنبية.

وبشكل عام استفاد المصريون من تعايشهم مع الأرمن بينهم في الوجود على أسرار عديدة للكثير من الصناعات الحرفية، واستمدوا الرغبة في الإتقان والاهتمام بالصورة النهائية للنتج، واكتسبوا منهم سمات المرحة في التعامل وحب الطبيعة والإقبال على الحياة، والسعي الدائم إلى التجديد والتحديث.

التفليح الفني

قال أرمن مظلوميان رئيس الهيئة الوطنية الأرمنية بالقاهرة لـ"العرب"، إن العلاقات المتميزة هي امتداد للتألق التاريخي المبكر بين شعبين لديهما طاقة تسامح ومحبة للإبداع والفن، وتولد عن امتزاج الثقافتين تطور فني مذهل حمل الكثير من التحسر وقدم العديد من محاولات التجريب في الفنون الجميلة. وأكد الباحث والناقد في مجال الفنون الجميلة علي حامد، أن الجالية الأرمنية بمصر لعبت دورا في تطوير فنون الرسم والنحت والتصوير الفوتوغرافي من خلال مساهمات فنانين بارزين مثلوا ذروة الإبداع الأرمني في مصر.

ويصعب التعرف على خبايا الفن المصري بعيدا عن المصور الأرمني يرفانت ديمرجيان (1870 - 1938)، وكان له الفضل الأول في تصوير وجوه المصريين في بدايات القرن العشرين من شرائح مختلفة بواقعية شديدة.

ضد التشويه

إذا كانت فترة السبعينات وما تلاها شهدت مدا أصوليا واضحا في المجتمع المصري، سعى إلى محاولة تشويه صورة الأرمن في العقل الجمعي، في ظل تبريرات الإسلاميين لمذابح دولة الخلافة

والنصف الأول من القرن العشرين، ما جعل الأرمن يفلتون من نظرة الإزدراء التي واجهوها في دول أخرى كانت تابعة للدولة العثمانية.

ميراث من التعايش

بحسب دراسة "الأرمن في مصر" للدكتور محمد رفعت الإمام أستاذ التاريخ بجامعة دمهور، شمال القاهرة، فقد نزع الأرمن إلى مصر منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وتدققوا بكثرة خلال عهد محمد علي، سعيا إلى المشاركة في مشروعاته التحديثية، ما دفعه إلى الاستعانة بهم في الكثير من الوظائف والصناعات. من أبرز هؤلاء بوعوس يوسفان الذي تولى مسؤولية إدارة ديوان التجارة في مصر سنة 1819، لكن أشهر الأرمن الذين عملوا في مصر عموما كان نوبار نوباريان باشا الذي تولى منصب أول رئيس وزراء في تاريخ مصر الحديث.

سكن الكثير من الأرمن في منطقة بين الصوريين بوسط القاهرة، وبنوا هناك أول مدرسة لهم، كما أقاموا كنيسة وأسسوا مكتبا لرعاية مصالحهم في الأوائيل، مثلما هو الحال مع ماسيان نسبة إلى مهنة تلميع الماس، وحديدان نسبة إلى صناعة الحديد، وترزيان نسبة إلى حياة الملابس، وغيرها.

كما أن طبيعة بعض المجتمعات لعبت دورا في تأكيد ذلك التوجه والتوافق معه، فالمجتمع المصري برحابته وتعدد أطرافه ووسطية شعبه، كان ولا يزال مناسبا لاستيعاب نبوغ وتفوق الأرمن فنيا وحرفيا وثقافيا، وامتصاص تأثيراتهم المختلفة وضمها لتصبح جزءا من سمات المجتمع المصري. والبعض أن قرب الصفات الإنسانية بين الأرمن والمصريين، جعلهم أكثر قدرة على الانسجام مع الثقافة العامة التي لم تخضع لتيارات التغريب، وبيدت عصية على تيارات التعصب الديني خلال القرن التاسع عشر الميلادي،

شغف المصريين بالأرمن يتزايد يوما بعد يوم على الصعيد الاجتماعي تحديدا، ولم تتأثر نظرتهم لهم بتقلبات التطورات السياسية. وفي المقابل يحتفظ الأرمن بعلاقة قوية راسخة في الوجدان العام، فمن تمصروا منهم مع الزمن أكدوا أنهم لا يقلون حبا لمصر عن غيرهم من المصريين.

وأضاف أن الماسي التي تعرض لها الأرمن، ومحاولات إبادةهم في فترات سابقة على يد الخلافة العثمانية ولدت لديهم رد فعل مقاوم، جعلهم يحتفزون دوما للتألق ويسعون إلى التفوق في جميع المجتمعات التي انتقلوا إليها.

وتتسم الشخصية الأرمنية بالصلاب والحرص على التفرد، وهو ما ظهر في إتقانهم لحروف بدوية وصناعات وفنون إبداعية عديدة ومتنوعة، كانهم يؤكدون للعالم كله أنهم أقوى من الإبادة وأعصى على الانقراض.

كما يتميز الأرمني بسرعة التعلم والذكاء الشديد والاهتمام بالثقافات المغايرة وقبولها، والميل إلى العمل الإنتاجي لا التجاري، وعدم التحرج من الأصول الحرفية للبعض، حتى أن أسماء بعض العائلات الكبرى بين الأرمن المصريين مستمدة في الأساس من مهن يدوية احترفتها الأجداد والنازحون الأوائل، مثلما هو الحال مع ماسيان نسبة إلى مهنة تلميع الماس، وحديدان نسبة إلى صناعة الحديد، وترزيان نسبة إلى حياة الملابس، وغيرها.

ومن هنا لا وجه للغرابة في تميز إبداعه صاحبه من أصل أرمني، لأن التاريخ يشير إلى أنهم كانوا أكثر الجاليات الأجنبية انخراطا في المجتمع المصري وتأثيرا في الفنون والحرف والصناعات اليدوية.

ورغم أن أعدادهم لم تكن كبيرة مثل اليونانيين والشوام في وقت سابق، إلا أن تأثيرهم كان شديد العمق، وتجاوز حدود المدن الكبرى، مع انتشارهم في أنحاء مختلفة بمصر، وهو ما يعزز فكرة التألق المجتمعي لدرجة الذوبان.

بصمات لا تنكر

قال الباحث والروائي المصري المتخصص في تاريخ الأرمن سمير زكي لـ"العرب"، "نتج الأرمن على مدى أجيال متتالية في ترك بصمات دامغة على الكثير من نواحي الفن والإبداع بمصر وبناتوا نموذجًا للجمال والإتقان".

مصطفى عبيد
كاتب مصري

القاهرة - لم يستغرب الناس أن يكون مصمم شاعر موكب ملوك الفراعنة الذي انطلق في القاهرة مطلع شهر أبريل وأبهز المشاهدين في أنحاء العالم مصريا أرمنيا، هو الفنان كريم محتجيان. ولم يستغربوا أيضا مما جرى قبلها بإيام في دبي عندما احتفى جمهور الفن بمعرض النحات المصري الأرمني أرمن أغوب، والمسسمى "البساطة معقدة"، وقدم فيه قطعًا نحوتية من الرخام الناعم والبازلت، بجاذبية أثار جدلا بين متابعي فن النحت، نظرا للإتقان الشديد والامتزاج اللافت بين الثقافتين المصرية والأرمنية في المعروضات.

أرمن مظلوميان
امتزاج الثقافتين ولد تطورا فنيا مدهلا حمل الكثير من الإثراء

ليس "محتجيان" ولا "أغوب" سوى تكرار لفكرة براعة الأرمن وقدرتهم على صناعة الجمال المدهش، انطلاقا من شعور قوي بامتزاج الهويتين المصرية والأرمنية معا ليصبح لفظ "مصري - أرمني" أو "أرمني - مصري" معتادا في المجتمع، ومعبرا عن الجمال والموهبة والإتقان.

ومن هنا لا وجه للغرابة في تميز إبداعه صاحبه من أصل أرمني، لأن التاريخ يشير إلى أنهم كانوا أكثر الجاليات الأجنبية انخراطا في المجتمع المصري وتأثيرا في الفنون والحرف والصناعات اليدوية.

